حلمي النمنم لـ"النسور": الغيبيات سلوك إنساني موجود في كل مكان

"عقلية الندابة العربية" إحدى الأدوات الرئيسة في انتشار الفكر الغيبي بمجتمعاتنا

انتشار الفكر الغيبي يزداد في فترات التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي

النص الديني مقدس لكن التفسير البشري محدود

1. كيف ترى مفهوم الفكر الغيبي؟

يختلف مفهوم الفكر الغيبي بحسب كل شخص؛ فقد يكون عند البعض رمزًا للفكر الديني عمومًا، وعند البعض الآخر غياب العقلانية في التفكير، وعند البعض الآخر قد يرمز إلى نوع مِن فهم الدين وليس الدين ذاته؛ فمثلًا عندما ظهر كوفيد -19، فوجئنا بالتفسير السائد أنه غضب مِن الله -سبحانه تعالى- وانتقام مِن الكفّار، ثمّ تبيّن أنه أكثر انتشارًا في إيران المُسلمة مثلًا، ثمّ اتضح أن عددًا مِن رجال الدين أصيب به أيضًا، وتعرض له بابا الفاتيكان نفسه. مما جعل الناس بشكل تلقائي تُعيد النظر في هذا التفكير حتى تراجع هذا التفسير.

بالنسبة للمجتمع المصري عندما نقول التفكير الغيبي فإننا نقصد نمط التفكير الذي يرفض التعامل مع مشكلات الواقع الاجتماعي وفقًا لأسبابها ومسبباتها العملية وينسبها إلى ظواهر خارقة. لذلك أنا أعتبر إن مَن يروجون إلى هذا النمط مِن التفكير هم "أعوان الفساد الحقيقي في مصر"؛ لأنهم يقاومن التغيير والإصلاح.

أما بالنسبة للتفكير الديني، فالتفكير الديني دائمًا موجود، وكان قائمًا طوال التاريخ في مختلف المجتمعات، وسيظل موجودًا ودورنا أن نحوله إلى تفكير ديني مستنير، لأنَّ الأديان هدفها الأساسي هو الإنسان كفرد وكمجتمع.

2. يخلط البعض بين الميتافيزيقا والغيبيات، في رأيك ما الفرق بينهما؟

تتحول الميتافيزيقا الآن إلى علم؛ إذ حاول الفيلسوف الألماني العظيم إيمانويل كانط جعلَ الميتافيزيقا علمًا، ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب تُرجِم إلى العربية وكان يُدرَّس في أقسام الفلسفة، واهتم به الدكتور عبد الرحمان بدوي وتلاميذه. ويوجد الآن في الغرب اتجاهٌ أن تكون الميتافيزيقا علمًا بالرغم مِن أنه يوجد بالضرورة جزءٌ منها مُتعلقٌ بالروح، وهذا جزء خاص جدًّا بكل إنسان وثقافة كل مجتمع، لكن يوجد جزء آخر يتحول إلى علم يخضع للمنهجيات العلمية.

إذًا فالميتافيزيقا شيءٌ والغيبيات شيءٌ آخر، فمثلًا عندما يُقال "الشافي هو الله"، ونعمَ بالله، ولكن لا بد عندما تمرض أن تذهب إلى الطبيب. مثلًا وأنا طفل كُنت أسمع أصوات عند الجيران ليلًا، فكانوا يقولون لي إن البيت ملبوس. وكانت لي إحدى الجيران تعاني من رعشة في جسمها نتيجة التئام جرح دون تنظيف جيد، وكانوا يقولون إن هذه الرعشة هي بسبب سكنى الفتاة بالجن والعفاريت. هذه هي الغيبيات التي نتكلم عنها ويجب أن نقاومها. إذًا ليست كل الميتافيزيقا غيبيات.

3. هل مصطلح الغيبيات ذو دلالة سلبية دائمًا؟

في السياق الذي نتكلم فيه وبالذات في عصر العلم والتكنولوجيا بالطبع يكون المصطلح مصحوبًا بدلالات سلبية محددة ومؤشرات ليست إيجابية.

4. هل نستطيع رصد مرحلة تاريخية مُحددة بدأ فيها الميل للفكر الغيبي عند المصريين؟

هذا الميل دائمًا يزداد في مراحل الضعف السياسي والاقتصادي، وذلك مُنذ التاريخ القديم. وأيضًا في أوقات الضعف الاجتماعي، فعندما تكون هناك فئات كثيرة مُهمشة في المجتمع عبر التاريخ، بالطبع سيميلون إلى هذا النمط من التفكير. وهذا ما حدث في تاريخنا المعاصر، فبعد نكسة 67 مباشرةً انتشرت بكثرة بين المسلمين وبين المسيحين، بعض الظواهر التي تقول بأن هناك أحد الأولياء أو القديسين يظهرون في أحلام أو رؤى... إلخ، وذلك لأن في فترات الضعف الشديد جدًّا يحتاج الناس إلى دعم وتمكين لتحقيق متانة نفسية لمواجهة التحديات ورفع الروح المعنوية.

وعندما شُنق طومانباي عند باب زويلة 1517م، أُنشِئَت له بعد ذلك عدة مقامات باسم "المتولي"، ويوجد بوابة باسم بوابة المتولي؛ وذلك لأنهم اعتبروا أن الله تولاه، وتحول "المتولي" إلى أسطورة في مصر كلها، وكانت بمثابة طاقة لرفع الروح المعنوية للشعب المصري آنذاك.

وعندما نُفي سعد زغلول مِن قبّل الإنجليز، كان في نظر المصريين تكرار لتجربة أحمد عرابي، فبعض الصحف نشرت بعض الأخبار مثل أن هناك طفلًا ولد وهو يقول "يحيا سعد" أو أن هُناك غيطًا من الفول مكتوب على قرون الفول فيه "يحيا سعد". إذًا هذه الأمور هي جزء من التماسك الاجتماعي فهي بمثابة زاد معنوي للشعب في ضوء هذه الفترات الصعبة.

5. ما هي العلاقة بين الثقافة الشعبية والفكر الغيبي؟

عندما ندرس الثقافة الشعبية مِن خلال الأمثال الشعبية سنجد أن الأمثال الشعبية يتوفر بها الشيء ونقيضه، فمثلًا عندما يكون هناك شخص فقير ونقول له عندما تموت ستذهب إلى الجنة، ويقول لنا هذا الشخص الفقير: "الي ملوش في الدنيا ملوش في الآخرة" فعندما نُحلل هذا المثل نجد أن الآخرة مرتبطة بالدنيا أو انعكاس لها. وتجد أمثال أخرى عكس هذا المفهوم. إذًا يُمكن أن تكون الثقافة الشعبية مُدعمة للتفكير الغيبي ويُمكن ألا تكون. فلا يوجد علاقة مباشرة بالضرورة.

6. هل توجد مناطق جغرافية تمل أكثر للفكر الغيبي عَن غيرها؟

أنا أرى أن الفكر الغيبي ينتشر في كل بلاد العالم، ولا يجوز أن نحصر هذا النمط من التفكير في بلادنا المصرية أو العربية، أو نعتبره صفة في الشرق فقط. فهو موجود في كل الثقافات حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية أو أوروبا. فهو يُعتبر ظاهرة إنسانية مرتبطة بوجود الإنسان.

7. لماذا نميل إلى الفكر الغيبي؟ ما هي المُسببات؟

كما ذكرت أنه مرتبط برد فعل الإنسان، أي إنسان، في أوقات الضعف والهزيمة وأمام الصدمات العنيفة. فلقد ظهرت بعد الأفكار الغيبية بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا النازية. وبالعودة مثلًا لأساطير أثينا القديمة وهزيمتها أمام أسبرطة. وحتى في الحياة الشخصية أيضًا أمام أي صدمة يتجه إلى هذا النمط من التفكير، فهذا النمط يُعتبر بمثابة آلية دفاعية نفسية لمواجهة الصدمة. فكل الأشياء تولد كبيرة ثم تصغر، فالحزن والصدمة يولدان كبيران ثمّ يصغران. وبالطبع يختلف تفاوت المتانة النفسية من شخص إلى آخر.

8. ما الذي كرَّس الفكر الغيبي في المجتمع المصري وما أدواته؟

أحد العوامل التي أعتبرها مكرسة للفكر الغيبي في مصر هي ما أسميه أنا بـ"عقلية الندابة العربية"؛ ففي عام 1967 كان هناك الكثيرون الذين يولولون، وكأنها نهاية مصر والمصرين، مع أن كل دول العالم تمر بفترات هزيمة ففرنسا انهزمت أمام ألمانيا، والولايات المتحدة لم تنتصر في حرب من بعد الحرب العالمية الثانية، فانهزمت في فيتنام وحتى الآن في أفغانستان وحتى في كوريا، باستثناء دونالد ترامب لم يدخل في حرب. وبالتالي لا يوجد مجتمع لم يهزم ولم توجد دولة لم تنهزم.

ولكن المشكلة عندنا هي في الندب والولولة، وهناك مستفيدون من عقلية الندابة هذه، وبالتالي أصبحت هناك أدوات تروج لهذه العقلية وأدبيات كاملة. وبالتالي أصبح هذا الفكر مركز قوة وصاحب هيمنة على الناس، مما يفسح المجال للعقلية الغيبية.

9. هل توجد علاقة بين النصوص الدينية وبين الفكر الغيبي؟

لكن أكون حياديًّا وموضوعيًّا، دعنا لا نظلم النصوص الدينية؛ فالمشكلة الحقيقية تكمن في تأويل النص وليست في النص ذاته، فالنص بشكل عام يُطلق عليه "حبل مطاط" أي يُمكن فهمه بأكثر من طريقة، وبالتالي عندما نأتي للنص الديني لا بد أن نعرف أنه بالفعل مقدس ولكن التفسير بشري محدود، ومن هنا تأتي أهمية تفسير النصوص بأدوات علمية تحترم طبيعة النص وأسباب نزول الآيات حتى تستخرج المعاني المحمودة والسامية من النص.

10. ما هي العلاقة بين الفكر الغيبي وتقدم البلاد؟

أعتقد أنه لا توجد علاقة بين مباشرة بين تقدم البلاد والفكر الغيبي؛ فالفكر الغيبي هو ظاهرة إنسانية تنشأ كرد فعل إنساني نفسي أمام الظروف الصعبة والصدمات العنيفة، كما أشرنا، وبالتالي التقدم والتخلف ناتجان من تقدم الدول سياسيًّا واقتصاديًّا، فعندما تُفعِّل الدولة القانون وتهتم بالاقتصاد ستكون دولة متقدمة، كما هو الحال في آسيا، فهناك دول متقدمة كثيرة وهي أيضًا تحتضن لثقافات بها فكر غيبي.

11. علاقة الفكر الغيبي بتعزيز قِيَم العيش المشترك ونبذ خطاب الكراهية؟

كلمة السر في هذه القضية هو دور الدولة وتوجه الدول، فمنذ حادث الخانكة عام 1972م وحتى عام 2013م لا يكاد يمر شهران أو ثلاثة إلا وتوجد أزمة طائفية، ولكن بعد صدور قانون تنظيم "بناء دور العبادة الموحد" -وهذا من أكثر الأمور التي أشرف بها أنني كنت جزء من الحكومة التي تقدمت بهذا القانون للبرلمان- لم نرَ مشكلة من هذا النوع.

المجتمع لا بد ألا يُترك للثقافة الغيبية والشعبيات، وأن يخضع للقانون، لأن القانون هو حاكم المجتمع. فمثلًا الولايات المتحدة الامريكية تشمل خليطًا رهيبًا من الأديان والثقافات والجنسيات ولكن ما يحكم المجتمع هو القانون، وكذلك إسرائيل يوجد بها يهود من 92 دولة، ومع ذلك يخضع الكل للقانون. فالقانون هو الذي يحدُّ انتشار هذه الثقافة.

12. ما هي توصياتكم لمواجهة الرؤى الغيبية في مجتمعانا؟

أولًا: تفعيل دولة القانون والاهتمام بالتشريعات، فهذا هو الذي يحد من انتشار مثل هذا النمط مِن التفكير.

ثانيًا: تعزيز التفكير العقلاني ونزع الأوهام عن الناس مثل وهم ال 100% في نتيجة الثانوية العامة، فهذا وهم لا بد من نبذه حتى تتحرر العقول من الغيبية.

ثالثًا: تعزيز ثقافة الجدية في العمل واحترامه؛ فعندما تكون هناك قوانين مُفعّلة وتفكير عقلاني واحترام للعمل، سيتم تقنين الفكر الغيبي والحد مِن انتشاره.